# الشرق الأوسط في فوضى: عن الأنظمة والحدود

يوست هيلترمان

**ملخص: مئة عامٍ مرَّت على تشكل حدود الشرق الأوسط الحديث للمرة الأولى. مضت حينها بريطانيا وفرنسا، المنتصرتان في الحرب العالمية الأولى، في تقسيم بقايا الإمبراطورية العثمانية المندحِرة. وبقيت الحدود التي رسمتها الدولتان حتى يومنا هذا، وتطورت الأنظمة السياسية التي وضعتا قواعدَها، لكنَّها لم تفلت أبدًا من اعتماديتها على قوى خارجية متعدِّدة، ما أفضى إلى أنظمةِ حكمٍ تتوطَّن فيها أوجه الخلل. هذا النظام الفوضوي الذي امتدَّ قرنًا من الزمان قد واجه تحديًا ممتدًا في أثناء انتفاضات ٢٠١١ الشعبية التي جابت منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وأتاح الانهيار اللاحق لعددٍ من الدولة العربية بدوره الفرصةَ لمجموعتَيْن من الجهات الفاعلة من غير الدول كي تمحو الحدودَ التي تعتبرها ظالمةً، وتعمل على رَسْمِ حدودٍ جديدة: الأولى تضمُّ الأكراد، الذين عانوا بشدَّة في نضالهم من أجل تأسيس دولة حُرموا منها قبل مئة عام؛ والثانية تضمُّ أتباع الدولة الإسلامية (داعش)، الساعين إلى تأسيس خلافة إسلامية عالمية تسمو فوق الدول القومية. وفشَلُ المجموعتَيْن حتى الآن في تحقيق طموحاتهما يشهد على قوةِ حدود منطقة الشرق الأوسط. ربما تسنح الفرصة لاحقًا؛ لكن في الوقت الراهن، ربما يكْمُن حلُّ مشكلة الحدود الظالمة في ترتيباتٍ سياسية أكثر فعالية داخل هذه الحدود. وبينما تبدأ مجتمعات الشرق الأوسط في انتزاع نفسها من هوَّة النزاع، كما يفعل العراق اليوم فيما يبدو، فإنَّ ذلك هو التحدي الذي سيتحتَّم عليها مواجهته، أي إعادة صياغة العقود الاجتماعية، وتأسيس بنى حكمٍ قادرة على استيعاب احتياجات شعوبٍ شديدة التنوع، والمساواة بينها، والإدارة السلمية للنزاعات الإقليمية مع الجيران.**

حين يتعرض الناس للصدمة وينجون منها، فإن طموحاتهم في التغلُّب عليها ومنع تكرارها لا تموت. بل بالعكس، تزداد تلك الطموحات قوةً بمرور الوقت، برغم الانتكاسات - الكارثية أحيانًا - حتى يأتي يومٌ يمنحهم فرصة كَسْرِ الحواجز الخارجية المفروضة عليهم، وتحقيق الأحلام التي طال انتظارها. لكنَّ النجاح ليس مضمونًا. فحراك الشعوب - أي استعدادها للكفاح والتضحية - قد يكون جوهريًا في تحقيق الأهداف، لكنَّه لا يكفي وحده. إذ تلعب البيئة الجيوسياسية المتغيِّرة باستمرار دورًا هي الأخرى في تحديد النتيجة[١].

وهناك مثالان قريبان على ذلك: استفتاء استقلال أكراد العراق في أيلول/سبتمبر عام ٢٠١٧، الذي اتضح أنَّ توقيته أُسيء تقديره إساءةً جسيمة؛ والانتفاضات العربية الفاشلة، التي سعت إلى إسقاط أنظمة الدول المصنوعة في أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية (تطورت هذه الأنظمة في الأعوام المئة المنصرمة، لكنَّها اتسمت بالخلل الوظيفي، وفقدت في نهاية المطاف البقيَّةَ الباقية من شرعيتها). إن الحدثَيْن منفصلان لكنَّهما متصلان أيضًا، فانهيار نظام الدول العربية غذَّى إيمانَ الأكراد بإمكانية المضي قُدمًا من أجل تحقيق حلم الدولة الكردية. وكلا الحدثَيْن أيضًا يرجع أصله إلى الفوضى الناشئة عن الحرب العالمية الأولى وتفكك الإمبراطورية العثمانية، التي وفرت لقرونٍ شيئًا من النظام لقاطنيها رغم أوجه الخلل المتزايدة بها.

### الحدود وضحاياها

إن الغنائم تذهب للمنتصر، ويخرج المندحر بأعمق مشاعر الحقد يغذِّيها الانتقام الذي لم يتحقَّق. بدأت القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، وهي بريطانيا وفرنسا، في تقسيم بقايا الإمبراطورية قبل نهاية الحرب بكثير. وتنازعت الدولتان على ترسيم الحدود لبضعة أعوام منذ اتفاقية سايكس بيكو لعام ١٩١٦، واستقرتا في النهاية على التسوية الباقية إلى يومنا هذا. وقطعت بريطانيا وفرنسا وعودًا للشعوب الخاضعة لهما، وحنثتا بها بالسرعة نفسها. وفي الكثير من الحالات، لم تكن هذه وعودًا حقيقية، بل مجرد أفكارٍ برزت في خضمِّ التفاوض ورسم الخطوط على الأوراق. فلم يحصل الأكراد على دولتهم الخاصة التي طالبوا بها وظنوا أنَّهم قد وُعِدوا بها، بينما انقسمت «الأمة» العربية إلى دولٍ شتَّى، رسمت حدودَها المصالحُ الإمبريالية التي فصلت العائلات عن بعضها والقبائل عن بعضها، وكانت الدوافع الرئيسة هي الولوج إلى موارد المياه والنفط. وخرجت تركيا دولةً ذليلة منفصلة عن الإمبراطورية. لكنَّها - مدفوعةً بحماسةٍ قومية جديدة تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك - تمكَّنت من كبح الطموحات الإقليمية لخصومها والسعي الكردي إلى الاستقلال[٢].

**إن الحدثَيْن منفصلان لكنَّهما متصلان أيضًا، فانهيار نظام الدول العربية غذَّى إيمانَ الأكراد بإمكانية المضي قُدمًا من أجل تحقيق حلم الدولة الكردية. وكلا الحدثَيْن أيضًا يرجع أصله إلى الفوضى الناشئة عن الحرب العالمية الأولى وتفكك الإمبراطورية العثمانية، التي وفرت لقرونٍ شيئًا من النظام لقاطنيها رغم أوجه الخلل المتزايدة بها**

وكان الشعب الكردي، الذي هو واحدٌ من أكبر الشعوب في العالم بلا دولة، ضحيةً واضحة لألاعيب القوى الإمبريالية وخيانتها من وجهة نظره. فبعد أن عُرِضَت عليه احتمالية إقامة دولة في معاهدة سيفر عام ١٩٢٠- في مساحةٍ جغرافية لا تضمُّ غالبية الأكراد - حُرِم الأكراد منها بعد ثلاثة أعوام فقط في معاهدة لوزان. وفي البنية الجديدة للشرق الأوسط، انقسم الأكراد إلى أربع أقليات منفصلة: في تركيا، وإيران، ودولتي العراق وسوريا العربيتين الجديدتين. وتاريخ الأكراد من بعدها هو تاريخ كفاح من أجل الحريات والانفصال، من أجل الاستقلال بدولتهم أو الاتحاد الذي تأخَّر كثيرًا تحت مظلة دولة كردية جامعة.

من السهل فَهْمُ دافع الأكراد، فقبائلهم وعشائرهم وعائلاتهم مزقتها الحدود الجديدة. فلم يعد بمقدور رعاة الغنم نقل قطعانهم من سهول شمال تركيا إلى المراعي الصيفية المعتادة في جبال جنوب شرق تركيا، وواجه التجار رسومًا جمركية غير مألوفة لكي يتمكنوا من البيع في مجتمعهم الخاص، ولم يعد مسموحًا بالانتماء والتمثيل السياسي إلا إن استتبع الولاء لدولةٍ مركزية هي بالنسبة إليهم غريبةٌ وعدوانية في المعتاد. وأي احتجاج - وبالأخص أي تعبير عن قومية كردية عابرة للحدود - قُوبِلَ بالقمع العنيف. وصارت حدود ما بعد الحرب العالمية الأولى مقدسةً بالنسبة إلى تركيا وإيران والعراق وسوريا، بغض النظر عن رأيهم فيها، ورأوا في أي محاولة لإزالتها تهديدًا وجوديًا، وسببًا كافيًا للاتفاق برغم خلافات هذه الدول السياسية والأيديولوجية والجيوستراتيجية العميقة[٣]. وصارت كلمة «التقسيم» هي أكثر الكلمات المكروهة في لسان العرب[٤].

حصل العرب على دولهم، لكنَّ الطموح الذي عاش لأعوام وصاغه القوميون العرب بإنشاء كيانٍ واحد تربطة اللغة والثقافة والتاريخ تم إحباطه. وامتعض القوميون العرب من الطبيعة الاعتباطية - في نظرهم -للحدود المفروضة عليهم، وقاوموا نيَّة بريطانيا المعلنة بتأسيس وطنٍ لليهود على أرضٍ عربية، باعتبارها محاولةً خبيثة لإبقاء العرب منقسمين. وبدافعٍ من هذه المظالم، تمتعت حركة الوحدة العربية بشعبية جارفة في معظم القرن العشرين. وحرَّكتها نخب علمانية حاولت - في بعض الأوقات - إعطاءها تعبيرًا متماسكًا وقُبْلةَ حياة عبر ضمِّ دولتهم إلى دولة أخرى رأوا فيها الطموحات نفسها: كوحدة مصر وسوريا، والعراق والأردن، والجهود المشابهة. كانت كل هذه المشروعات بلا استثناء قصيرةَ العمر، إن كانت قد تحققت من الأصل. وعلاوةً على ذلك، رضيت النخب الحاكمة مع مرور الوقت بالحدود التي ورثتها، واعتنقت بإخلاصٍ الهويات المنفصلة (العراقية والسورية والأردنية والمصرية وغيرها) التي تميز دول الشرق الأوسط الحديث[٦].

**من السهل فَهْمُ دافع الأكراد، فقبائلهم وعشائرهم وعائلاتهم مزقتها الحدود الجديدة. فلم يعد بمقدور رعاة الغنم نقل قطعانهم من سهول شمال تركيا إلى المراعي الصيفية المعتادة في جبال جنوب شرق تركيا، وواجه التجار رسومًا جمركية غير مألوفة لكي يتمكنوا من البيع في مجتمعهم الخاص، ولم يعد مسموحًا بالانتماء والتمثيل السياسي إلا إن استتبع الولاء لدولةٍ مركزية هي بالنسبة إليهم غريبةٌ وعدوانية في المعتاد**

كانت نقطة التحول هي هزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧، التي حملت الاسْمَ المُهين «حرب الأيام الستة». فقد أظهرت الحرب أنَّ الوحدة العربية قد فشلت (استُبدلت لبعض الوقت بالقومية الفلسطينية)[٧]. وتراجعت النخب العلمانية، وبرزت أيديولوجيات جديدة بقيادة إسلاميين يطمحون إلى الوحدة الإسلامية أكثر من الوحدة العربية. بعبارةٍ أخرى: وحدة عمياء عرقيًا، بين العرب والأتراك والأكراد وغيرهم، تحت راية الإسلام. وكان أول التعبيرات السياسية عن هذه الحركة جماعة الإخوان المسلمين، الجماعة ذات الأصول المصرية التي أنبتت جماعاتٍ زميلة بأيديولوجيةٍ مشابهة في أنحاء الشرق الأوسط. ويرجع بقاء هذه الجماعات، التي حظرتها أنظمةٌ علمانية راسخة مدعومة من الغرب، بشكلٍ كبير إلى تفادي العمل السياسي الصريح. وقد مرت هذه الجماعات أيضًا بدرجةٍ من التحول إلى التطرف، إذ اندفع الشباب الساخط إلى ساحات الحرب في أفغانستان في ثمانينيات القرن الماضي، ولاحقًا في العراق مع الغزو الأميركي. وهناك اكتسب الشباب مهاراتِ التنظيم والقتال، وسمعة الأبطال المتصدين للغزاة الأجانب، وصنعوا نموذجًا رغب الكثيرون في الوطن العربي أن يحذو حذوَه. وفي أكثر مظاهرهم التنظيمية تطرفًا، ألا وهو تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، استهدف الإسلاميون استعادة الخلافة التي أنهاها أتاتورك بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية[٩].

وحين اندلعت الانتفاضات العربية في عام ٢٠١١، لم يتحرك المحتجون بدافعٍ من ظلم حدود دولهم واعتباطيتها، بل بسبب طبيعة ترتيبات الحكم داخل هذه الحدود، التي تمخضت عن المحسوبية والمحاباة وأشكالٍ أخرى من الفساد، وفشلت فشلًا متزايدًا في تقديم الخدمات وتوزيع ثمار أي نمو اقتصادي (اختلف حجم النمو من دولة إلى أخرى، وتراكمت أغلب الثروات في دول الخليج). وجاء السعي إلى تغيير الحدود

**وجاء السعي إلى تغيير الحدود بين البلدان من فصيلَيْن محدودَيْن: الأكراد، الذين ليست لديهم دولة من الأصل، وعانوا بشدَّة في سعيهم إلى إنشاء دولة كردية على مدار قرن؛ وأتباع الدولة الإسلامية (داعش)، الذين احتفلوا في حزيران/يونيو ٢٠١٤ باختراق الحدود العراقية السورية كخطوةٍ أولى تجاه تأسيس خلافة إسلامية عالمية تسمو فوق الدول القومية**

بين البلدان من فصيلَيْن محدودَيْن: الأكراد، الذين ليست لديهم دولة من الأصل، وعانوا بشدَّة في سعيهم إلى إنشاء دولة كردية على مدار قرن؛ وأتباع الدولة الإسلامية (داعش)، الذين احتفلوا في حزيران/يونيو ٢٠١٤ باختراق الحدود العراقية السورية كخطوةٍ أولى تجاه تأسيس خلافة إسلامية عالمية تسمو فوق الدول القومية. وفشَلُ المجموعتين حتى الآن في تحقيق طموحاتهما يشهد على قوة حدود منطقة الشرق الأوسط، في مُقابل اصطناعيتها المزعومة.

كيف تتغيَّر الحدود؟ إن اعتمدنا على التاريخ، فتغييرات الحدود - خاصةً المتنازع عليها - تنشأ بشكلٍ رئيس من أحداثٍ درامية تُطيح بما هو أكثر من الحدود - مثل تفكُّك إمبراطورية - ويخرج منها خاسرون وفائزون واضحون. وكانت الحرب العالمية الأولى مجموعةً من تلك الأحداث التي رجَّت الأرض؛ وكذلك كانت الحرب العالمية الثانية، التي تمخَّض عنها الاتحاد الأوروبي، الذي هو اتحاد يتسع تدريجيًا لمجموعةٍ من الدول القومية في وحدةٍ واحدة، تُزال فيه الحدود بينها جزئيًا بمرور الوقت. وأدت نتيجة الحرب أيضًا إلى تقسيم ألمانيا إلى دولتَيْن؛ ولم تتوحَّد الدولتان مجددًا إلا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بعد أكثر من أربعة عقود. وكذلك سمح تفكُّك الاتحاد السوفيتي بافتراق التشيكيين والسلوفاكيين وديًا. وفي أماكن أخرى، تشكلت دولٌ وحدودٌ جديدة في أتون الحرب، كما حدث في البلقان وفي السودان وجنوب السودان. حتى داخل أوروبا، بدأت النزعات الانفصالية - التي جرى احتواؤها لمدةٍ طويلة بسبب الدمار الذي يعرف الجميع إمكانية أن تتسبَّب به حركات الانفصال - في الاشتداد مجددًا. انظر إلى التطورات في إسبانيا/كاتالونيا في ٢٠١٧ [10].

إن الأكراد تلاميذُ منكبُّون على دراسة التاريخ والجغرافيا، وهدفهم الرئيس هو فهم تركيبة العوامل التي ستساعدهم في إنشاء دولةٍ خاصة بهم، ومتى يمكنهم ذلك. وقد دخل الأكراد مرارًا في تحالفاتٍ مع القوى العظمى على أمل أنَّها ستدعم السعي الكردي إلى الاستقلال في مقابل المنافع التي سيقدمها الأكراد بموجب هذه التحالفات[11]. وحين رأى قادة أكرادِ العراق الضعفَ الذي حلَّ بدولة العراق بعد ٢٠٠٣، وسقوط سوريا في الحرب الأهلية بعد ٢٠١١، ومنعطف التدمير الذاتي الذي اتخذته تركيا بعد ٢٠١٥؛ وحين استغلوا بنجاحٍ حاجة القوى الغربية إلى قواتٍ برية محلية في قتال الدولة الإسلامية (داعش) بعد ٢٠١٤ عن طريق توفير القوة البشرية وجهود الحشد، وحين منحتهم القوى العظمى في المقابل المعدات العسكرية والتدريب إضافةً إلى الدعم والتعاطف السياسي - ظنَّ الأكراد أنَّ اللحظة قد حانت.

**إن الأكراد تلاميذُ منكبُّون على دراسة التاريخ والجغرافيا، وهدفهم الرئيس هو فهم تركيبة العوامل التي ستساعدهم في إنشاء دولةٍ خاصة بهم، ومتى يمكنهم ذلك. وقد دخل الأكراد مرارًا في تحالفاتٍ مع القوى العظمى على أمل أنَّها ستدعم السعي الكردي إلى الاستقلال في مقابل المنافع التي سيقدمها الأكراد بموجب هذه التحالفات**

وفي سبتمبر/أيلول ٢٠١٧، تجاهل مسعود بارزاني، رئيس إقليم كردستان في العراق، كلَّ الاحتجاجات من هؤلاء الحلفاء أنفسهم - الولايات المتحدة والحكومات الأوروبية وتركيا - ومن خصومه - الحكومة الفيدرالية في العراق وإيران. لكنَّه في حميَّته أساء تقدير القوة الباقية للتيارات القومية في العراق وسوريا، وتحكُّم تركيا في دَخْلِ الأكراد من صادرات النفط، والعزم الإيراني على نشر قواتٍ وكيلة لمنع انفصال الأكراد عن العراق، واستعداد واشنطن للتغاضي عن الإجراءات المضادة المشتركة من الجهات المذكورة حفاظًا على مصلحتها الأطغى، وهي الحفاظ على التماسك الإقليمي للعراق. وبدلًا من تحقيق استقلال كردستان العراقية، أُجبِرَ قادة الأكراد على سحب قواتهم الأمنية من الأراضي العراقية، ومن ضمنها كركوك التي تحتوي ثورةً نفطية كان من الممكن أن تصبح محركًا لاعتماد الأكراد على أنفسهم اقتصاديًا، وهو انسحابٌ أدى إلى انتكاس طموحات الأكراد السياسية بما يقدر بعقود[12].

كذلك انهزمت طموحات الدولة الإسلامية (داعش)، لكن بوسائل أخرى. حوصرت تلك الطموحات بالقرار الاستراتيجي الذي اتخذه التنظيم بإطلاق مشروعه من قاعدةٍ إقليمية بدلًا من محاولة بناء حركة منتشرة جغرافيًا يصعب استهدافها، كما فعل تنظيم القاعدة والجماعات الموالية له. وفي أواخر عام ٢٠١٧، كان مقاتلو داعش قد طُرِد أغلبهم من العراق وسوريا، وأُعيدَ إرساء الحدود. وربما يبقى التنظيم، متغذيًا على العداوات ذاتها التي أدت إلى نشأته، لكن من المستبعد أن يتمكن قريبًا من تنفيذ محاولةٍ أخرى لاستعادة الخلافة عبر احتلال المناطق.

لا ينبغي توقع أن يتخلى أيٌّ من المعسكرَيْن عن طموحاته. غير أنَّهما - إن كانا قد تعلَّما من الإخفاقات - سيختاران وسائلَ مختلفةً لتحسين فرصهما، انتظارًا للحظة الذهبية.

**الأنظمة والفوضى الكامنة فيها**

بمجرد انتهاء فرنسا وبريطانيا من تقسيم الشرق الأوسط ما بعد العثمانيين عبر ترسيم حدود الدول الجديدة، مضت الدولتان إلى تشكيل النظام السياسي داخل تلك الحدود، وفي كل الحالات أسست أنظمة خاضعة[١٣]. شكلت الدولتان تلك الأنظمة جزئيًا على صورتها: أنظمة مَلكيَّة في الدول الخاضعة للانتداب البريطاني، وأنظمة جمهوريَّة في الدول الخاضعة للانتداب الفرنسي. وكان لجوء بريطانيا إلى الهاشميين من أجل تولي حكم العراق والأردن مكافأةً على دعمهم بريطانيا في القتال ضد العثمانيين في الجزيرة العربية، وكان الهاشميون وشكلُ حكومتهم غُرباءَ على الشعوب الخاضعة لحكمهم. بقي الهاشميون حُكَّامًا للعراق لخمسة وثلاثين عامًا، وحُكَّامًا للأردن حتى اليوم[١٤].

**كذلك انهزمت طموحات الدولة الإسلامية (داعش)، لكن بوسائل أخرى. حوصرت تلك الطموحات بالقرار الاستراتيجي الذي اتخذه التنظيم بإطلاق مشروعه من قاعدةٍ إقليمية بدلًا من محاولة بناء حركة منتشرة جغرافيًا يصعب استهدافها، كما فعل تنظيم القاعدة والجماعات الموالية له**

ومن السمات المميزة للأنظمة التي صنعتها بريطانيا وفرنسا فَهْمُها لمجتمعات الشرق الأوسط على أنَّها تكتلٌ من مجتمعات عرقيَّة وطائفيَّة فاقدة لأي مبدأ تنظيمي أعلى، ومن ثمَّ لا يمكن توقُّع انصهارها في دولٍ متماسكة. فقد لعبت تلك الأنظمة على هذه الاختلافات باستراتيجية فرِّق تَسُد الإمبريالية، فانحازت إلى الأقليات وخاصةً الأقليات الدينية، لمنع الأغلبية من الوصول إلى السلطة واتباع نهجٍ أكثر استقلالية: كاليهود في فلسطين، والعلويين في سوريا، والأكراد في العراق.

وقد تنوعت سبل الدول الجديدة لتحقيق الاستقلال الرسمي في طولها، لكنَّ اعتمادها على المراكز الإمبريالية الغربية (وفي بعض الحالات في أثناء الحرب الباردة على الاتحاد السوفيتي) في توفير الحماية العسكرية كان طويل الأمد. وقدمت هذه الأنظمة للدول الغربية في المقابل أقصى رغباتها: الولوج إلى الموارد، والولاء (وقمع النزعات القومية التي استغلها الاتحاد السوفيتي)، والطاعة وحتى الدعم المادي في الحروب (على سبيل المثال في الكويت)، ومعاهدة سلام مع إسرائيل.

**كذلك انهزمت طموحات الدولة الإسلامية (داعش)، لكن بوسائل أخرى. حوصرت تلك الطموحات بالقرار الاستراتيجي الذي اتخذه التنظيم بإطلاق مشروعه من قاعدةٍ إقليمية بدلًا من محاولة بناء حركة منتشرة جغرافيًا يصعب استهدافها، كما فعل تنظيم القاعدة والجماعات الموالية له**

وبمرور الوقت، أفضت الأنظمة الخاضعة إلى أنظمةٍ لا يُعتمد عليها، وتوقف الأمر على من يتولى السلطة، فالمجتمعات نفسها كانت في حالة تقلُّب مستمرة، والعالم من حولها تعرض لتغيراتٍ مفاجئة على مدار القرن. والتجربة العربية ما بعد العثمانيين هي تأريخٌ لسعي المجتمعات إلى التكيُّف مع التدخلات المستمرة من لاعبين خارجيين أكثر قوةً، وهذه التدخلات مكروهةٌ بسبب استغلالها النيوكولونيالي للموارد الطبيعية ودعمها للأنظمة السلطوية التي تجعل هذا التدخل ممكنًا، لكنَّها مرغوبة بسبب خواصها التحديثية. وسَعَت تلك المجتمعات كذلك إلى مقاومة هذه التدخلات، أو إن أمكن تحويلها ودمجها. والطبيعة المختلطة للدول الناشئة عن ذلك - المدفوعة جزئيًا بمصالح إمبريالية، وتعكس جزئيًا البنى والممارسات المحلية القائمة - جلبت معها أزمة شرعية مستمرة قد تجلب نهاية الأنظمة الفوضوية ما بعد العثمانيين، مثل كل الأمراض المُزمنة.

في مئة عام، مرت المنطقة بسلسلةٍ من التجارب السياسية والأيديولوجية، لكنَّ أنظمة الدول بشكلٍ شبه دائم، وبغض النظر عن قشرتها الأيديولوجية، كانت قائمة على حكم الأقليات العسكري القمعي، بلا معارضة لجشع القوى الخارجية في امتصاص الموارد. وصارت الانقلابات العسكرية الوسيلةَ المفضَّلة للوصول إلى السلطة، خاصةً في أواخر الأربعينيات والخمسينيات والستينيات. واستغل المستبدون المؤسساتِ العسكرية الأمنية في السيطرة على المجتمعات، وسحقت هذه المؤسسات الحياةَ السياسية، ودخلت في دائرةٍ مفرغة عطلت الآليات التي تضمن التداول السلمي المنتظم للسلطة. وصار الحكم العسكري متوطنًا في تلك الدول. ومع تغيير الأنظمة بالقوة، تراجع دور المؤسسات المدنية التي أنشأتها القوى الاستعمارية، مثل البرلمانات الوطنية والمحاكم والسلطات القضائية، على عيوبها. وأزال هذا أي نظامٍ يشبه الضوابط والموازنات الرقابية، أو توفير الخدمات عبر الأجهزة التكنوقراطية، وخلَّف مكانه أنظمةً فاسدة لا تخضع للمساءلة، تعيش على أرباح النفط بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.

**ومن السمات المميزة للأنظمة التي صنعتها بريطانيا وفرنسا فَهْمُها لمجتمعات الشرق الأوسط على أنَّها تكتلٌ من مجتمعات عرقيَّة وطائفيَّة فاقدة لأي مبدأ تنظيمي أعلى، ومن ثمَّ لا يمكن توقُّع انصهارها في دولٍ متماسكة. فقد لعبت تلك الأنظمة على هذه الاختلافات باستراتيجية فرِّق تَسُد الإمبريالية**

ومع تغير مجتمعات الشرق الأوسط، فقدت تدريجيًا بصمة صانعيها المميزة. ومن الخطأ أن نلوم هذه المجتمعات اليوم على العيوب الكثيرة في بنى الحكم التي استقبلتها

في بادئ الأمر. فقد اكتسبت حياةً خاصة بها، بصراعاتها الداخلية المستقلة على الأيديولوجيا والسياسة وتوزيع الموارد. غير أنَّ هذه الحيوات تشكلت أيضًا بالتفاعل المستمر مع عالمٍ خارجي يفوقها قوةً بكثير، اقتصاديًا وعسكريًا. وقاد هذا إلى عملية "حل مشاكل" خارجية بواسطة التدخلات العسكرية، بدعوةٍ من الدولة أحيانًا (آخر الأمثلة، روسيا في سوريا في ٢٠١٥) لكن بلا دعوة في أغلب الأحيان (العراق في ٢٠٠٣، وليبيا في ٢٠١١، أمثلةٌ قريبة). ودائمًا ما تُعمِّق التدخلات الخارجية مواطنَ الخلل في أنظمة الحكم بدلًا من تحسينها.

**ومع تغير مجتمعات الشرق الأوسط، فقدت تدريجيًا بصمة صانعيها المميزة. ومن الخطأ أن نلوم هذه المجتمعات اليوم على العيوب الكثيرة في بنى الحكم التي استقبلتها في بادئ الأمر. فقد اكتسبت حياةً خاصة بها، بصراعاتها الداخلية المستقلة على الأيديولوجيا والسياسة وتوزيع الموارد. غير أنَّ هذه الحيوات تشكلت أيضًا بالتفاعل المستمر مع عالمٍ خارجي يفوقها قوةً بكثير، اقتصاديًا وعسكريًا**

**سمحت النتيجة المؤسفة للانتفاضات الشعبية للجهات الفاعلة من غير الدول باستغلال الفوضى الناشئة، والضغط في اتجاه تحقيق طموحاتهم بتعديل الحدود المرفوضة منذ وقتٍ طويل، بل وإزالتها. وقد انقسمت هذه الجهات إلى مجموعتَيْن مختلفتَيْن اختلافًا كبيرًا: الدولة الإسلامية (داعش) والأكراد. وفشل كلاهما في تحقيق هدفه**

وكشفت الانتفاضات العربية في ٢٠١١ عن التصدُّعات العميقة في أنظمة الحكم وإخفاقاتها، لكنَّ حركات «نزول الشعب إلى الميادين» افتقرت بدورها إلى الإرادة والتنظيم اللازمَيْن لتقديم رؤية بديلة. وفي أغلب الحالات، تعرضت تجارب الشعوب العربية في الحشد الشعبي إلى السَّحْقِ التام أو التخفيف، أو سقطت في هوَّة الحرب الأهلية مع تصاعد قمع الدول البوليسية المحاصَرة. غير أنَّ السعي إلى نظامِ حكمٍ أكثر فعاليةً مستمرٌ في الشرق الأوسط؛ وغياب الحل لا يُفضي إلا إلى استجلاب موجة شعبية جديدة أكثر عنفًا في المستقبل. ولا يمكن أن يخرج الحلُّ المناسب إلا من رَحِمِ كل مجتمع على حدة؛ فإن أي شيء آخر سيتَّسم بالخلل والضعف نفسه أمام التدخل الخارجي.

**أنظمة أفضل بواسطة حدود أفضل؟**

سمحت النتيجة المؤسفة للانتفاضات الشعبية للجهات الفاعلة من غير الدول باستغلال الفوضى الناشئة، والضغط في اتجاه تحقيق طموحاتهم بتعديل الحدود المرفوضة منذ وقتٍ طويل، بل وإزالتها. وقد انقسمت هذه الجهات إلى مجموعتَيْن مختلفتَيْن اختلافًا كبيرًا: الدولة الإسلامية (داعش) والأكراد. وفشل كلاهما في تحقيق هدفه.

ويُمكن الدفع بأنَّ هدف الأكراد كان الأقلَّ طموحًا بين الاثنَيْن - حتى مع الفشل في تحقيقه حتى الآن: فبعد حرمانهم من إقامة دولة خاصَّة بهم منذ قرنٍ مضى، لم يُرِد قادة الأكراد أكثر مما يرون أنَّ كل شعبٍ آخر قد حصل عليه بالفعل: دولة خاصة بهم. كان هذا ليتطلب تعديلًا للحدود القائمة لكي تسع أقليةً كبيرة، وتقلصًا في حجم الدول «المستضيفة» للأكراد، وهي تركيا وإيران والعراق وسوريا. ولا توجد دولة تتقبَّل تقليص حجمها، إضافةً إلى أنَّ الاضطراب الداخلي في العراق وسوريا بالأخص لم يخلق موقفًا يمكن للأكراد النجاح فيه.

أما طموح الدولة الإسلامية فهو الأكبر، أي إنشاء خلافة للمسلمين في أنحاء العالم. كان هذا ليتطلب محو الحدود، ليس فقط في الشرق الأوسط بل في رقعةٍ جغرافية أوسع بكثير. ومن الخطأ الاستهانة بقوة هذا المشروع الأيديولوجي وجاذبيته الدائمة، أو قوة الجماعات الجهادية مثل القاعدة، التي تعمل بصبرٍ على تحقيق هذا الهدف. لكن يصعب رؤية كيف يمكن لهذا المشروع النجاح في عالمٍ إسلامي متنوعٍ تنوعًا كبيرًا، وفي وجود الكثير من القوى المتعارضة بشرعيةٍ محلية أكبر أو أقل.

إن الحدود ستتغيَّر مرةً أخرى بالطبع، وفي الشرق الأوسط أيضًا، لكنَّ الأمر قد يتطلب حدثًا آخر يرجُّ الأرضَ قبل أن يحدث هذا. وفي الوقت الراهن، سيتعيَّن أن يأتي حلُّ مشكلة الحدود الظالمة من تأسيس ترتيباتٍ سياسية أكثر فعالية داخل هذه الحدود، تستند إلى عقودٍ اجتماعية مجدَّدة في مجتمعات ما بعد الصراع، مجهَّزة بنى حكمٍ قادرة على استيعاب احتياجات شعوبٍ شديدة التنوع، والمساواة بينها، والإدارة السلمية للنزاعات الإقليمية مع الجيران. وربما يبدو هذا هدفًا غير واقعي. لكن، بينما تبدأ مجتمعات الشرق الأوسط في انتزاع نفسها من هوَّة النزاع، كما يفعل العراق اليوم فيما يبدو، فإنَّ هذا سؤالٌ ينبغي الإجابة عليه. والطريقة التي ستتمُّ بها الإجابة عليه ستحدِّد طبيعةَ الأنظمة والحدودَ المستقبلية في المنطقة.

## المراجع والمصادر

[1] This essay is a spin-off from a larger piece, as yet unpublished, about the MENA region's increasingly intersecting conflicts; some text may overlap. Views expressed herein are entirely my own.

[2] For a concise conceptual approach to this period, see Toby Dodge, "The Danger of Analogical Myths: Explaining the Power and Consequences of the Sykes-Picot Delusion", LSE Middle East Centre Blog, 28 September 2016, at: http://blogs.lse.ac.uk/mec/10/10/2016/the-danger-of-analogical-myths-explaining-the-power-and-consequences-of-the-sykes-picot-delusion/; and Nicholas Danforth, "The Kurds, Sykes-Picot and Quest for Redrawing Borders", Bipartisan Policy Center, 10 February 2016, at: https://bipartisanpolicy.org/blog/kurds-sykes-picot-redrawing-borders/. For a history, see James Barr, A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the Middle East (London: Simon & Schuster, 2011).

[3] The best general historical work on the Kurds remains David McDowall, A Modern History of the Kurds. London: I.B. Tauris, 2000.

[4] In Turkish, the term is bölünmek – partition; in Farsi, it is jodayee talabi – separatism/irredentism. Both carry a strongly negative connotation.

[5] See Ernest Dawn, "The Origins of Arab Nationalism," in Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih and Reeva Simon, eds., The Origins of Arab Nationalism (1991), pp. 30-3.

[6] Of course, there are exceptions. Iraq's 1990 invasion of Kuwait was driven by a rejection of that particular border and of Kuwait's independent status instead of being Iraq's 19th province.

[7] See Walid Kazziha, Revolutionary Transformation in the Arab World: Habash and his Comrades from Nationalism to Marxism (London: Charles Knight & Co., 1975).

[8] The Muslim Brotherhood in Jordan was an exception. The Hashemite king brought the group into politics in the early 1970s when he felt his reign threatened by Palestinian nationalism – a fine example of effective co-optation.

[9] For an overview of modern jihadism, see Crisis Group Special Report N°1, Exploiting Disorder: al-Qaeda and the Islamic State, 14 March 2016. Also see, Mohammad-Mahmoud Ould Mohamedou, "The Militarization of Islamism: Al-Qā'ida and Its Transnational Challenge," The Muslim World, Vol. 10, No. 2 (April 2011), pp. 23-307.

[10] A particularly tricky problem presents itself when the border is a natural waterway, whose course changes over time. Although the Netherlands and Belgium do not have a visible border in most places – only road signs announcing that you have just crossed it – one part of it is the Maas/Meuse. After the river bed shifted, and following lengthy negotiations, that part of the border was changed by mutual agreement in November 2016. See, Washington Post, 29 November 2016, at: https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/29/11/2016/netherlands-and-belgium-to-end-lawless-border-oddity-by-swapping-land-peacefully/?noredirect=on&utm_term=.12755c68b8de. These negotiations took place between two very close allies within the overarching structure of the European Union. Compare this with the Shatt al-Arab that divides southern Iraq from Iran, its shifting course, the intermittent negotiations and short-lived agreements over the border's exact locations, and the conflict for which its contested nature provided a pretext: the Iran-Iraq war.

[11] The Kurds' plight is that greater powers see an alliance with them almost invariably as tactical, whereas the Kurds see it as strategic. See Joost Hiltermann, "They Were Expendable", London Review of Books, 17 November 2016.

[12] See Joost Hiltermann and Maria Fantappie, "Twilight of the Kurds", Foreign Policy, January 2018.

[13] In the case of most of the smaller Gulf states, decolonization did not happen till the early 1970s.

[14] See Peter Sluglett, "An improvement on colonialism? The 'A' mandates and their legacy in the Middle East," International Affairs, Vol. 90, No. 2 (2014), pp. 427-413.

## عن المؤلف

يوست هيلترمان هو رئيس برنامج الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في مجموعة الأزمات الدولية، منظمة غير حكومية مستقلة تسعى إلى منع الصراعات، والتي لعب فيها أدوارا مختلفة منذ عام ٢٠٠٢. قبل ذلك، كان الرئيس التنفيذي لقسم الأسلحة من هيومان رايتس وتش بين عامي ١٩٩٤ و٢٠٠٢، ومنسق قاعدة البيانات ومنسق الأبحاث في منظمة حقوق الإنسان الفلسطينية أهل الحق في رام الله بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٠. يحمل هيلترمان شهادة الدكتوراة في علم الإجتماع من جامعة كاليفورنيا – سانتا كروز. وقد ألف عده كتب: علاقة سامة: أمريكا، العراق، وإستخدام الأسلحة الكيميائية في حلبجة (كامبريدج، ٢٠٠٧)، خلف الإنتفاضة: حركات حقوق العمال والمرأة في الأراضي المحتلة (برنستون، ١٩٩١). ويعد مساهما منتظما إلى نشريات: النيويورك ريفيو اوف بوكس، لندن ريفيو اوف بوكس، النيويورك تايمز، لفورين افيرز، فورين بوليسي، ذا اتلانتيك، ميديل ايست ريبورت، وفضلا عن نشريات أخرى. وهو متحدث عن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في عده جامعات ومنصات، منها هارفارد، برنستون، ييل، كولومبيا، براون، ام اي تي، تافتاس، جامعة نيويورك، جورج تاون، إلى جانب مؤسسات أخرى.

## عن الشرق

منتدى الشرق هو شبكة دوليّة مستقلّة تتمثّل مهمتها في تطوير استراتيجيّات طويلة الأمد لضمان التطور السياسي، والعدالة الاجتماعيّة، والازدهار الاقتصاديّ لشعوب منطقة الشرق الأوسط. وسيقوم بتنفيذ ذلك من خلال الأبحاث المتفانية في العمل العامّ، وبتعزيز مُثُل المشاركة الديمقراطيّة، والحوار بين أصحاب المصالح المتعددة والعدالة الاجتماعيّة

**Address**: Istanbul Vizyon Park A1 Plaza Floor:6
No:68 Postal Code: 34197
Bahçelievler/ Istanbul / Turkey
**Telephone:** +902126031815
**Fax:** +902126031665
**Email:** info@sharqforum.org

منتدى الشرق
ALSHARQ FORUM

**sharqforum.org**

/ SharqForum

/ Sharq-Forum